ذات يوم لا بد لي من التفكير بهدوء . اقول لنفسي دائما ان فرصة ان افكر بهدوء لم تتح لي قط في العشرين سنة الماضية ، فقد كانت عيشتي عيشة نكد حقا .

اننا ، حين نفقد واحدة من حواسنا ، فانها لا تضيع . كيف أشرح ذلك الاحساس الغامض ؟ ان الصمم نوع من نوم الصوت . الحاسة ذاتها تظل في داخل الجسد كهدير طاقة حبيسة ، ويكاد صوت استغاثتها أن يسمع ، وهذا بالذات هو الشيء الذي اعتزمت ، طوال عمري ، أن أفكر فيه بهدوء .

اما الان فليس ثمة الا الطواف على سطوح الاشياء الساكنة . الدوران الصامت في قاع الساعات الرتيبة لحياة لا يعرف احد كيف تسير ولا الى اين . ومنذ عشرين سنة وانا اجلس هنا ، اناول الاكياس لصفوف لا تنتهي من اللاجئين . منذ عشرين سنة يمتد امام بصري هذا الصف الطويل من الرجال والنساء والاطفال ، يتحركون امامي كالاشباح . يتدافعون بلا صوت ، وترتطم الصفائح التي يحملونها ببعضها دون ان يصدر عن ذلك الارتطام اي رنين . كأن العالم كله يغطس في حوض ماء زجاجي امام عيني .

وشيئا فشيئا اخذت ادرك ان وجودي هنا لم يكن مصادفة ، فمما لا ريب فيه ان هذه الارتال التي لا تنتهي من البشر البائسين كانوا يكيلون لي سبابا لا يحتمل ، فانا — امامهم — يد وكالة الغوث التي تمتد لهم بالطحين والسمن والفول . وقد يكون الطحين قليلا او فاسدا ، وقد تكون حبوب الفول اقل من قشوره ، ولكنني لم اكن لاسمع . كانت يداي تمتدان بالاكياس ، وكنت ارى شفاههم تتحرك ، ولكنني لم اكن لاسمع .

وعرفت ، يوما بعد يوم ، انهم وضعوني هنا قصدا ، فلم يكن من الممكن لاي رجل اخر ان يحتمل ذلك الطوفان من الغضب الكسيح عشرين سنة متواصلة ، يوما وراء يوم ، ويدا ممدودة وراء يد ممدودة . لقد كنت البوابة الحديدية لقصر المحسنين ، على اقدامها يتكسر صوت الغضب . وامامي كان ملايين اللاجئين يعومون داخل حوض زجاجي كالاسماك الصغيرة العاجزة ، دون صوت .

اقول ملايين ، لانني ، ربما لكوني لا اسمع الاصوات ، قد تعودت ان ارى ارتال اللاجئين امامي رتلا واحدا مستمرا مثل نهر متجدد . لقد فقدت القدرة على التاكد من ان ما اراه ليس الا تكرارا . شهريا لمشهد واحد عمره عشرون سنة ، واكتسبت بالتدريج شعورا بانني اقف امام صف لا نهاية له من البشر ، يعبر افراده واحدا واحدا من تحت ذراعي وبصري ، ولكنه لا ينتهي ، لا ينتهي ، لا ينتهي .

ولست ادري كيف تسللت نغمة « عيشة النكد » الى لساني من اعماق سحيقة ، ربما لانني كنت بصورة ما مسحوقا ، في مكان لا يكاد يرى ، بين جدار البوابة الحديدية لقصد المحسنين وبين الامواج المتكسرة للاصوات الغاضبة القادمة من الخارج ، او ربما لانني بصورة ما كنت فردا في ذلك الرتل البائس من البشر ، سقط بالصدفة امامه ، وصار بالصدفة ايضا يتلقى امواجه الصامتة ويمتصها دون ان يعي ، وظللت هناك ، شيئا معلقا في الهواء مثل غيمة .

وهكذا تبدأ القصص ، ثم لا يعرف احد كيف تنتهي : قرأت في الصباح ان الولي عبد العاطي ، المدفون في الحقول القريبة من المدينة ، قد بدأ يجترح المعجزات . وان ثمة كسحاء عادوا من عنده يمشون ، والى جانب ذلك الكلام نشروا صورة للقبر الطيني الواطيء ، الذي لا يحوطه اي حاجز ، والمنخفض اكثر مما اعتادت القبور ان تكون خفيضة ، ووراء كومة الطين تلك كانت ترتفع شجرة ذات جذع ثخين ، عارية تماما من اية ورقة ، وبين فرعين في اعاليها نبتت ، مباشرة من الجذع ، كتلة تشبه رأس الانسان ، مرفوعة قليلا الى الاعلى ، كأنها تنظر الى السماء ، في وقت لا تكف فيه عن